الملتقى الوطني الموسوم بـ:

الإنسان المعاصر والتصوف
"البعد الروحي في صناعة الإنسان

من تنظيم: الزاوية التجانية بتماسين بالتنسيق مع جامعة الجزائر2

المنعقد بـ: الزاوية التجانية بتماسين، تقرت، الجزائر في: 17- 18 أكتوبر 2021

.....

عنوان المداخلة:

حقيقة الإنسان في الفكر الصوفي التجاني

إعـــــــــداد:

د. أمينـــــــة تجـــــــاني

أستاذة بقسم اللغة والأدب العربي

كلية الآداب واللغات

جامعة الوادي

ملخص:

أَوْلَى الفكر الصّوفي التّجّاني عنايته بالإنسان لأنّه قطب الكون وعليه مداره، فنظر إليه نظرة شاملة إجماليّة، نظرة تركّز على حقيقته الثّلاثيّة التّكوين؛ عقل وجسد وروح، واهتمّ بمعرفة خصائص وميزات كلّ عنصر من العناصر الثّلاثة ككيان واحد غير منفصل، فركّز على مطالب كلّ منها بالتّوازن بينها دون إفراط أو تفريط، مع شرط تلازمها في السّمو بالإنسان نحو الكمال الإنساني، وذلك من أجل تحقيق الأهداف الكبرى التي خلق من أجلها؛ الخلافة والعمارة والعبادة.

مقدّمة:

إنّ البحث في حقيقة الإنسان، موضوع أسال حبرا كثيرا؛ إذ تناوله الباحثون من عدّة جوانب؛ ذاته، خصائصه، عناصر تكوينه، وظيفته، وذلك بغية الوصول إلى فهم ماهيّته وفكّ شفراته، ورغم تقدّم العلوم وارتقاء المعارف حول الإنسان وقهره للطّبيعة وتوفّر وسائل العيش المادّي إلا أنّ الإنسان المعاصر لم يجد السّعادة التي يبحث عنها، وبقي في حيرة من أمره.

لهذا كثر الحديث في هذا القرن عن فكرة الإنسان، وكان لمختلف النّظريّات الفكريّة والفلسفيّة؛ عند الغرب والمسلمين نصيبا في دراستها؛ إذ أدلى كُلٌّ بدلوه بما يراه مناسبا لنسق فكره، ولم يتخلّف الصّوفيّة عن ذلك، فقد كان لهم قصب السّبق في طرح نظريّة الإنسان الكامل التي لا تزال موضوع جدال وبحث لحدّ الآن.

والفكر الصّوفي التّجّاني هو بدوره تناول موضوع حقيقة الإنسان، وذلك بالتّركيز على عمليّة الارتقاء والسّمو به إلى درجة الكمال الإنساني، ولكن السّؤال الذي يتبادر إلى الذّهن:

كيف نظر الفكر الصّوفي التّجّاني للإنسان؟

هل اختلف في رؤيته للإنسان عن الفكر الصّوفي؟

هل في طرحه فكرة جديدة تناسب إنسان القرن الواحد والعشرين؟

وللإجابة عن هذه الإشكاليّات خضنا غمار البحث، فجاء موسوما بـ "**حقيقة الإنسان في الفكر الصّوفي التّجّاني**"،

محدّدين الكلمات المفتاحيّة الآتية: مفهوم الإنسان، الإنسان بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي، الفكر الصوفي التجاني، الإنسان في الفكر الصوفي التّجّاني.

أوّلا: مفهوم الإنسان

1- لغة:

نجد في لسان العرب أنّ "الإنسان في الأصل إِنْسِيان، فهو إِفْعِلان من النّسيان، وحذفت الياء فقيل: إنسان... وروي عن ابن عباس –رضي الله عنهما– أنّه قال: إنّما سمّي الإنسان إنسانا لأنّه عُهِدَ إليه فنسيَ"[1].

وفي تهذيب اللغة يقول الأزهري: "وأصل الإنس والأَنس والإنسان من الإيناس وهو الإبصار، يقال: أَنِسْتُهُ وأَنَسْتُهُ أي أبصرتُهُ، وقيل للإنس: إِنْسٌ لأنّهم يُؤنسون أي يبصرون، كما قيل للجنّ: جنّ لأنّهم يُؤنسون أي لا يبصرون"[2].

إنّ دلالة لفظة إنسان في معاجم اللغة العربيّة تأخذ معنيين؛ الأوّل: النّسيان الذي يرجع إلى كون آدم – عليه السّلام– نسيَ ما عُهِدَ إليه من قِبَلِ الله. والثّاني: الظّهور؛ إذ سمّي إنسانا لظهوره ورؤيته.

والإنسان اسم جنس يطلق على الذّكر والأنثى على حدّ سواء، جاء في المعجم الفلسفي أنّ "الإنسان من الإِنْس مثنّى بصيغة المفرد (إنس– ان)، فالإنسان جنس؛ آدم وحوّاء، الرّجل والمرأة نوعان من جنس واحد"[3]. ومن "إِنْس اشتقّت إنسانيّة (Humanité) كمصدر صناعي من كلمة إنسان، وهي تعني جملة الخصائص التي تتميّز بها البشريّة عمّا سواهم من الحيوانات، مثل: العقل والسّيطرة على الهوى وتقديم المصلحة العامّة على المصلحة الشّخصيّة، أو هي عطف الإنسان على أخيه الإنسان واحترامه وتقديره بقطع النّظر عن وضعيّته الاجتماعيّة والسّياسية"[4].

وفي المعجم الفلسفي الفرنسي: الإنسانيّة (Humanisme) تطلق بصفة عامّة على كلّ ما يتعلّق بكرامة الإنسان، والقيمة العليا، ممّا يجب التّحفيز أكثر من الدّفاع على الأخلاقيّات، الاقتصاد، الدّين...[5]

2- اصطلاحا:

تعدّدت تعريفات الإنسان في المعنى الاصطلاحي، وذلك راجع إلى اختلاف زوايا النّظر؛ فهناك من عرّفه من جانب فلسفي وهناك من تناوله من جانب منطقي، وآخر من جانب بيولوجي وهكذا، ولهذا سندرج بعض التّعريفات حسب زاوية النّظر[6]:

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، م6، ص10، 11. (مادة أنس).

[2] الأزهري، تهذيب اللغة، ج13، ص 89.

[3] خليل أحمد خليل، معجم المصطلحات الفلسفية، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1995، ص 25، 26.

[4] المرجع نفسه، ص 55.

[5] Gérard Durozoi, André Rousse Nathan, Dictionnaire de Philosophie, imprime en France par I.M. E, 2003, p 185, 186.

[6] ينظر: بوعرفة عبد القادر، الإنسان المستقبلي في فكر مالك بن نبي، ، دار الغرب، المغرب، دط، دت، ص 8، 20.

أ- **بيولوجيّا:** الإنسان كائن حيّ من منظور أنّه يقوم بوظائف كالتّغذية والإحساس، الحركة، التّناسل، والحيوان تترتّب عنه عدّة فلسفات سفلت الإنسان تسفيلا.

ب- منطقيّا: الإنسان من الوجهة المنطقيّة جنس قريب، وعند بعض النّوع (Espece)، وإذا اعتبرنا الحيوان جنس (Genre)، وقد يختلط مفهوم الإنسان مع الرّجل، والفرق بينهما أنّ الإنسان جنس والرّجل نوع وبالتّالي فالإنسان يخصّ الذّكر والأنثى.

ج- فلسفيّا: نجد تعاريف متعدّدة منها:

- ✓ الإنسان الصّانع (Home- Faber) من جهة أنّه يصنع نفسه ويصنع الموجودات التي يتمّ بها وجوده.
- ✓ الإنسان العاقل (Home- Sapiens) من حيث كونه يفكّر، ويتولّد وجوده من تصوّره من حيث كونه موجود لذاته (être pour soit).
- ✓ الإنسان الاقتصادي (Home- Economie).

ثانيا: الإنسان بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي

1- الفكر الإسلامي:

أ- الإنسان في القرآن الكريم:

خلق الله الإنسان وأسكنه أرضه لحكمة إلهيّة، تتمثل في؛ الخلافة والعمارة والعبادة، فأمّا الأولى فلقوله تعالى: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾[1]. وأمّا الثّانية فلقوله: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾[2]. وأمّا الثّالثة فلقوله: ﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون﴾[3].

فهو أعظم المخلوقات بالنّشأة والخلافة، "ومكانه في القرآن الكريم هو أشرف مكان له في ميزان العقيدة، وفي ميزان الفكر وفي ميزان الخليقة الذي توزن به طبائع الكائن بين عامّة الكائنات"[4]، فهو "الخليفة المسؤول بين جميع ما خلق الله، يدين بعقله فيما سمع ورأى، ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب"[5]، وهو الكائن المكلّف[6] المستعدّ للسّمو والرّقي أو الانحدار والتّردّي بما جبل عليه من طبائع الخير والشّر، ولهذا نجد "ذكره في القرآن بغاية

---

[1] سورة البقرة، الآية 30.

[2] سورة هود، الآية 11.

[3] سورة الذاريات، الآية 56.

[4] عباس محمود العقاد، الإنسان في القرآن، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، دط، دت، ص 18.

[5] المرجع نفسه، ص 10.

[6] المرجع نفسه، ص 19.

الحمد وغاية الذّمّ في الآيات المتعدّدة، وفي الآية الواحدة، فلا يعني ذلك أنّه يحمد ويذمّ في آن واحد، وإنّما معناه أنّه أهل للكمال والنّقص بما فطر عليه من استعداد لكلّ منهما؛ فهو أهل للخير والشّر؛ لأنّه أهل للتّكاليف[1].

ومناط التّكليف حسب العقاد قائم بنصوص القرآن على أركان ثلاثة: تبليغ وعلم وعمل[2]؛ أمّا التّبليغ فلقوله تعالى: ﴿ولكلّ أمّة رسول﴾[3]. وأمّا العلم فلقوله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربّك الذي خلق﴾[4]، فأوّل فاتح في خلق الإنسان كان فاتحة العلم الذي تعلّمه آدم وامتاز به عن سائر المخلوقات. وأمّا العمل فهو مشروط في القرآن بالتّكليف الذي تسعه طاقة المكلّف، وبالسّعي الذي يسعاه لربّه ولنفسه، لقوله تعالى: ﴿لا يكلّف الله نفسا إلا وسعها﴾[5].

ب- الإنسان في الحديث الشّريف:

ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم العديد من الأحاديث عن نشأة الإنسان وتكوينه وفضله عن باقي المخلوقات، وسنورد هنا الحديث الذي له علاقة برؤية الصّوفيّة للإنسان بما فيهم الشّيخ سيدي أحمد التّجّاني، فعن أبي هريرة –رضي الله عنه– أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ الله خلق آدم على صورته"[6]. وهذا الحديث يحيلنا إلى نظريّة الإنسان الكامل في الفكر الصّوفي، كما يحيلنا إلى نظريّة الإنسان في الفكر التّجّاني، وهذا ما سنتناوله لاحقا؛ كلّ في الجزء المخصّص له.

ج- الإنسان عند علماء الإسلام:

يعرّف ابن سينا (1037-980م) الإنسان في كتابه (النّجاة)، بقوله: "ليس الإنسان إنسانا بأنّه حيوان مائت، أو أيّ شيء آخر، بل إنّه مع حيوانيّته ناطق"[7] ويضيف في كتابه (الشّفاء): "الإنسان جوهر له امتداد في أبعاد مادّيّة تفرض عليه الطّول والعرض والعمق، ومن جهة أخرى يمتلك نفسا بها يتغذّى ويحسّ ويتحرّك ومع ذلك يمتلك عقلا به يفهم الأشياء ويتعلّم الصّناعات... وعندما يتحدّى كلّ ما سبق نحصل على ذات متّحدة هي الإنسان"[8].

---

[1] المرجع نفسه، ص 13.

[2] العقاد، الإنسان في القرآن، ص 14.

[3] سورة يونس، الآية 7.

[4] سورة العلق، الآية 1.

[5] سورة البقرة، الآية 286.

[6] مسلم، الصّحيح، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص 217، رقم: 2642.

[7] نقلا عن: ناجم مولاي، مفهوم الإنسان الكامل في الفكر الصوفي، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع7، جانفي 2012، ص 133.

[8] المرجع نفسه، ص 133، 134.

أمّا الفارابي (874- 950م) فيعرّفه بقوله: "إنّ الإنسان منقسم إلى سرّ وعلن، أمّا علنه فهو الجسم المحسوس بأعضائه وأمشاجه، وقد وقف الحسّ على ظاهره، ودلّ تشريحه على باطنه، أمّا سرّه فقوى روحه"[1].

د- الإنسان عند أئمّة الصّوفيّة:

يعدّ ابن عربي أوّل من طرح فكرة الإنسان الكامل في الفكر الصّوفي، وإن كان قد سُبق إليه فيما يخصّ معنى المصطلح ومضمونه كما عند أبي منصور الحلاج، ولكنّه لم يتبلور كمفهوم ناضج ومكتمل إلا عند ابن عربي وعبد الكريم الجيلي.

فهو يرى أنّ الخلافة هي علّة خلق الله – من استخلفه وجعله نائبا عنه- على صورته، فيقول: "إنّما كانت الخلافة لآدم – عليه السّلام- دون غيره من أجناس العالم لكون الله تعالى خلقه على صورته، فالخليفة لابدّ أن يظهر فيما استُخْلِفَ عليه، بصورة مُسْتَخْلِفِه، وإلا فليس بخليفة له فيهم"[2].

فالإنسان الكامل هو الخليفة، وهو الذي خلقه الله على صورته، فيقول: "وإن شئت قول النّبي صلى الله عليه وسلم (إنّ الله خلق آدم على صورته) فهذه صفته، فإنّما لما جمع له في خلقه (بين يديه) علمنا أنّه قد أعطاه صفة الكمال؛ فخلقه جامعا كاملا، ولهذا قَبِلَ الأسماء كلّها، فإنّه مجموع العالم من حيث حقائقه، فهو عالم مستقلّ، وما عداه فإنّه جزء من العالم"[3]. فهو يرى أنّ الإنسان الكامل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكل من ورثه؛ إذ لا يخلو عصر منه.

ويميّز بينه وبين غيره، فيقول: "الإنسان الكامل لا الإنسان الحيواني أكمل نشأة للحقائق التي أُنشئ عليها حقائق الأسماء الإلهيّة وحقائق العالم، وهو الذي أنشأه الله على الصّورة، فهو بجمعيّته حقّ كلّه"[4].

فالإنسان عنده صنفان: الإنسان الكامل والإنسان الحيواني، وهذا الأخير هو المحجوب الغافل، وفي ذلك يقول الشيخ سيدي أحمد التّجّاني: "قال ابن عربي في الإنسان المحجوب ليس بإنسان إنّما هو شبه إنسان كالذّات الميتة التي لا روح فيها، فهي ذات الإنسان ولكن لا روح فيها"[5]. فهو بمثابة إنسان ميّت؛ فهو جسد لا روح فيه.

---

[1] المرجع نفسه، ص 134.

[2] ابن عربي، الفتوحات المكية، تح: عثمان يحي، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1992، ج4، ص 179.

[3] المصدر نفسه، ج12، ص 252، 253.

[4] المصدر نفسه، ج9، ص 332.

[5] سيدي الحاج علي حرازم، جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني، تح: محمد الراضي كنون، دار الرّشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2011، ج2، ص 743.

وأمّا الحيّ فهو "... الإنسان الكامل هو الخليفة الأعظم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿أو من كان ميتا فأحييناه﴾[1]. ومرتبة الخليفة الأعظم؛ إذ لا اسم يختصّ به، فإنّ أسماء الوجود كلّها أسماء له، لتحقّقه بمراتبها، ولكونه هو الرّوح في جميع الموجودات. فما في الكون ذات إلا وهو الرّوح المدبّر لها، والمحرّك لها والقائم فيها، لا في كورة العالم مكان إلا وهو حالّ فيه ومتمكّن منه. فبهذا الاعتبار لا اسم له يتميّز به عن الوجود، ولا مكان يختصّ به دون آخر"[2].

2- في الفكر الغربي:

إنّ نظرة العلماء والباحثين إلى حقيقة الإنسان عبر تاريخ الإنسانيّة الطّويل لم تخرج عن اعتباره ثنائي التّكوين؛ جسد وروح أو جسد وعقل، مع التّركيز على أحد الجانبين على حساب الآخر، أو محاولة دراسته على أساس عنصرين منفصلين لكلّ عنصر ميزاته التي تخصّه.

فنجد مثلا من الدّراسات المبنيّة على الثّنائيّة في التّكوين مع التّركيز على الجانب الرّوحي أكثر من الجانب المادّي، الفلسفة الإشراقيّة، "والنّظرة الأفلاطونيّة التي تنظر إلى الرّوح على أنّه جوهر مجرّد عن المادّة، أزلي، طاهر، وأنّ الجسم سجن للرّوح، معذّب له، وترى أنّه يجب أن يكون هنالك عمليّة تطهير وإصفاء للرّوح"[3]. فهي تهتمّ بالرّوح على حساب الجسم.

كما نجد محاولة أخرى لدراسته على أساس مادّي بحت، وأنّه لا يتعدّى أن يكون تفاعلا كيميائيّا وكهربائيّا للجسد، "فالنّظرة المادّيّة للإنسان ترى أنّه لا يعدو أن يكون إلا جسما مادّيّا، وأنّ الحالات النّفسيّة والعمليّات العقليّة ما هي إلا تفاعلات كيميائيّة كهربائيّة داخل الجسم، وأنّه ينعدم بموته، وليس هنالك روح باقية بعد الموت يرجع إليها ما يتّصف به الإنسان من قيم وفضائل ومبادئ"[4].

كما نجد "الإنسان الشّمولي" عند (كارل ماركس)، والذي يدلّ على العلاقة المتبادلة بين الفرد والمجتمع من جهة، وصورة مثاليّة معيّنة من جهة ثانية[5]، وكذلك الفرنسي (مارسيل موس) الذي عرّفه بالواقعة الاجتماعيّة الشّموليّة أو الكلّيّة المتحقّقة باختيار فرد شمولي[6]. بالإضافة إلى نظريّة التّطوّر عند (داروين).

إنّ النّظرة الأفلاطونيّة والمادّيّة والماركسيّة والدّاروينيّة فيها قصور، لأنّ كلّا منها اعتنت بجانب دون الآخر، واهتمّت بمعرفة خصائص التّكوين لكلّ من العنصرين المنفصلين ككيانين.

---

[1] سورة الأنعام، الآية 122.

[2] سيدي الحاج علي حرازم، جواهر المعاني، ج2، ص 743.

[3] سهير فضل الله أبو وافية، الفلسفة الإسلامية، ص69.

[4] محمود زيدان، في النفس والجسد، ص 60، 63.

[5] ينظر: ناجم مولاي، الإنسان الكامل في الفكر الصوفي، ص 134.

[6] ينظر: المرجع نفسه، ص 134.

ثالثا: الفكر الصّوفي التجاني

ارتبط الفكر الصّوفي التّجّاني منذ البداية بمؤسّس الطّريقة التّجّانيّة الشيخ سيدي أحمد التّجّاني، فهو الذي وضع اللبنات الأولى لهذا الفكر؛ فِكْرٌ لم ينتشر كتابة لأنّ الشّيخ سيدي أحمد التجاني لم يؤلف كتبا، لإيمانه العميق بأنّ التطبيق هو الأنفع، لقوله: "والتعليم بالفعل أبلغ نصحا وأتم نُجْحا"[1].

ولهذا جسّد أفكاره على أرض الواقع من خلال طريقته التّجّانيّة، والتي منها نستخلص أفكاره وآراءه.

1- التّعريف بالشيخ المؤسّس للفكر التجاني:

أ- نسبه ونشأته:

هو الشيخ سيدي أحمد التجاني؛ "أبو العباس أحمد بن مَحمد بن المختار بن أحمد بن محمد بن سالم، ولد سنة (1150 هـ،1737م) بقرية عين ماضي بولاية الأغواط بالجزائر.

ونشأ بها في عفاف وأمانة، وحفظ وصيانة, وتقى وديانة، كان كريم الأخلاق طيب النّفس والفعال, كثير الحياء والأدب, حسن السّمت, طويل الصّمت, كثير الوقار عالي الهمة"[2].

كان أسلافه كلهم منتسبين لأهل العلم ومشهورين بالتّقى والصّلاح، ويصعد نسبه الأبوي إلى الحسن بن الإمام علي -كرّم الله وجهه- وحفيد النبي محمد صلى الله عليه وسلم من ابنته السيدة فاطمة الزهراء. أما أمّه فهي عائشة بنت محمد السنوسي التجاني الماضوي، نسبة إلى قبيلة بني توجين التي أعطت اسمها للشيخ الذي أصبح يعرف به (التجاني)"[3].

ب- تكوينه الفكري:

حفظ الشّيخ سيدي أحمد التجاني القرآن العظيم في السابعة من عمره على يد الشّيخ أبي عبد الله محمد بن حمو التّجّاني الماضوي، وما بلغ الخامسة عشر حتى أتمّ الدراسة بعين ماضي على يد الأستاذ مبروك بن بوعافية، فقرأ عليه مختصر خليل والرسالة لابن أبي زيد القيرواني ومقدمة ابن رشد وكذلك تحصّل على كل ما يلزمه من علم النحو واللغة وصار جديرا بالتدريس والفتوى فكان يدرّس ويفتي وهو ابن ستّة عشرة سنة[4].

---

[1] سيدي الحاج علي حرازم، جواهر المعاني، ج1، ص 164.

[2] الحاج علي حرازم, جواهر المعاني وبلوغ الأماني، ج1، ص 96.

[3] الحاج علي حرازم، جواهر المعاني، ص 96. وقد ترجم للشيخ مجموعة من العلماء الذين عاصروه، ونوّهوا به وبجّلوه واعترفوا له بالعلم والصلاح والمكانة، منهم: محمد بن جعفر الكتاني في كتابه سلوة الأنفاس في أعيان فاس ، جامع كرامات الأولياء، يوسف بن إسماعيل النّبهاني في كتبه حلية البشر في أعيان القرن الثالث عشر لعبد الرزاق البيطار، الشيخ عبد الرحمن الجيلالي في كتابه تاريخ الجزائر العام وغيرهم، وهم ليسوا على طريقته. (ينظر: عبد الرحمن طالب، الشيخ سيدي أحمد التجاني ومنهجياته في التفسير والفتوى والتربية، إنجاز الجاحظية، الجزائر، 1999، ص43).

[4] الحاج علي حرازم، جواهر المعاني, ص 96، 97.

ثم مال الشيخ إلى طريق الصوفية والبحث عن الأسرار الإلهية حتى تبحر في فهم علومها والأحوال والمقامات والعلل والوقت, فبعد مُضي ثلاث سنوات قضاها بالتعليم في عين ماضي قام بجولة طويلة (بين 1758م و1763م) قطع فيها ربوع الصحراء وبلاد المغرب الأقصى قاصدا مراكز العلم وملتمسا للمعرفة والحكمة من أربابها وخلال هذه الفترة أخذ الطريقة القادرية والصديقية بمدينة فاس, ثم رجع من المغرب واستقر بزاوية أولاد سيدي الشيخ بقرية الأبيض سيدي الشيخ مدة 5سنوات (1763, 1767م), ثم انتقل إلى مدينة العلم تلمسان التي مكث بها 5 سنوات (1768, 1772م) قضاها في التدريس.

وفي سنة 1773م عزم على أداء فريضة الحج فمر بجبل جرجرة بالقبائل الكبرى وأخذ الطريقة الخلوتية عن الولي الشهير محمد بن عبد الرحمن، ثم مر بتونس ومكث بها بضعة أشهر يدرّس بجامع الزيتونة فأفاد واستفاد من أهل العلم والصلاح، ثم واصل سيره فمرّ بالقاهرة والتقى بالولي الشهير محمود الكردي (1715, 1780م) كما التقى بالولي أحمد بن عبد الله الهندي الذي منحه أسراره العلمية والمعرفية. وفي يوم الاثنين التاسع من ذي الحجة (20 فيفري 1774م) كان وقوفه بجبل عرفه، وبعد إتمام مناسك الحج المبرور شدّ الرحيل لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة فالتقى فيها بالولي محمد بن عبد الكريم السمان (1718, 1776م) أحد مشايخ الطريقة القادرية الذي منحه ما شاء الله من علوم وأسرار وبشّره بعلو المقام[1].

رجع الشيخ سيدي أحمد التجاني إلى الجزائر في آخر 1774م ومكث بتلمسان (من 1775م إلى 1781م) حيث التقى بأول أصحابه ومريديه محمد بن المشري السائحي الطيباتي, وخلال هذه الفترة زار فاس سنة 1777م أين التقى بصاحبه الثاني العارف بالله الحاج علي حرازم مؤلف كتاب جواهر المعاني. وفي سنة 1781م رحل الشيخ أحمد التجاني إلى قصر أبي سمغون بولاية البيض في الجنوب الغربي الجزائري وفي هذا القصر ذات يوم من أواخر سنة (1196هـ,1781م) بلغ مراده وكان الفتح الأكبر[2].

وبذلك أسّس طريقته التّجّانيّة وبدأ بتلقين الخلق أورادها بإذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتصدّر للتّربية، ومكث بأبي سمغون مدّة 17 سنة، ثمّ رحل إلى فاس مدينة العلم والعلماء سنة 1798م، وبقي فيها 17سنة يدرّس ويفتي ويربّي، وقد أقبل عليه النّاس من كلّ جهة يأخذون عنه العلم والتّربية ويعتنقون طريقته التي بدأت في الانتشار شيئا فشيئا، إلى أن وافته المنيّة سنة 1230هـ, 1815م[3]. ثمّ واصلت الطريقة التجانية انتشارها من خلال خلفائه الذين واصلوا المسيرة في كل أصقاع العالم.

ج- آثاره:

---

[1] الحاج علي حرازم، جواهر المعاني وبلوغ الأماني، ج 1، ص 115، 122.

[2] الحاج علي حرازم, جواهر المعاني, ص 125.

[3] المرجع نفسه, ص127.

أهمّ شيء تركه الشّيخ سيدي أحمد التّجّاني هو الطّريقة التّجّانية والزّاوية، ولم يخلّف كتبا كغيره من السّادة الصّوفيّة، إلا بعض الشّروح والمختصرات والوصايا والرّسائل والأوراد، والتي جمعها بأمر منه تلميذيه؛ الحاج علي حرازم ومحمد بن المشري في كتابيهما؛ جواهر المعاني، والجامع. ومع قلّة آثاره إلا أنّه كتب في مختلف فنون النّثر الصّوفي، من ذلك:

- ✓ **الأجوبة** وتضم أجوبة عن الحروف اللفظية والرقمية والفكرية[1]، ومجموعة من الأجوبة فيما يتعلّق بقواعد العقل والتي أملاها على تلميذه محمد بن المشري والتي ضمنها هذا الأخير كتابه (الجامع) وسمّاها بـ (إزالة اللبس والإبهام فيما خفي على علماء الكلام)[2].
- ✓ **الصّلوات** ومنها ياقوتة المحتاج في الصّلاة على صاحب المعراج، مجموعة من الصّلوات الواردة في جواهر المعاني وفي بعض كتب الطّريقة التّجّانيّة.
- ✓ **الأوراد والأحزاب** منها: ورد الشّيخ أحمد التّجّاني، حزب التّضرّع والابتهال وقرب الملك المتعال، وأذكار تجانيّة[3].
- ✓ **الشّروح** وتشمل شرحه لكل من جوهرة الكمال في مدح سيّد الرّجال والصّلاة الغيبيّة في الحقيقة الأحمديّة، وياقوتة الحقائق في التّعريف بسيّد الخلائق[4]، وكتاب الإرشادات الرّبّانيّة بالفتوحات الإلهيّة على متن الهمزيّة لأبي عبد الله البوصيري[5]، شرحه للنّصف الأوّل لمختصر الشّيخ خليل[6].
- ✓ **التّفسير** ويشمل تفسيره لعدد من الآيات القرآنيّة[7].
- ✓ **المختصرات** وتضم مختصر السّير والسّلوك إلى ملك الملوك[8]، مختصر جماع معرفة الحديث[9]، مختصر كتاب التّنوير وكتاب منهج الإبانة[10].
- ✓ بعض الإملاءات[11].

---

[1] مخطوط بالخزانة العامة، الرباط، رقم 2425 د. نقلا عن: سعدية أوتبعزيت، نشأة الفكر الصوفي التجاني، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة، ع3، أكتوبر 2016، ص 154.

[2] أحمد بن عبد العزيز بن عبد الله، الشيخ سيدي أحمد التجاني؛ أبعاد ضلاعته العلميّة، ص 42.

[3] أفرد لها محمد سيدي الحافظ التجاني كتابا سماه: أحزاب وأوراد القطب الرباني والعارف الصمداني الشيخ أحمد التجاني ، د دار نشر، مصر، ط6، 1984.

[4] الحاج علي حرازم، جواهر المعاني، ص 269، 299.

[5] كتاب مطبوع وبالهامش الأطرزة الإبريزية على القصيدة الهمزية لابن عبد الواحد النظيفي، دار الرشاد، البيضاء، 1426هـ، 2006.

[6] أحمد بن عبد العزيز بنعبد الله، الشيخ سيدي أحمد التجاني ؛ أبعاد ضلاعته العلميّة ص 42. إدريس العراقي، اليواقيت العرفانيّة، ص 12.

[7] سيدي الحاج علي حرازم، جواهر المعاني، ص 100، 154.

[8] موجود بخط الشيخ (نسخة مصورة) بالزاوية الكبرى بحي بريمة، مراكش. نقلا عن: سعدية أوتبعزيت، نشأة الفكر الصوفي التجاني، ص 155.

[9] الإحالة نفسها.

[10] الإحالة نفسها.

[11] مخطوط بالخزانة العامة، الرباط، رقم: 1699 د. سعدية أوتبعزيت، نشأة الفكر الصوفي التجاني، ص 155.

- ✓ **المسائل والاستنباطات** ومن ذلك: استنباطاته الأصيلة والعميقة من القرآن[1]، فضل القضيّة في مسألة المعيّة[2].
- ✓ **الوصايا** وتضم وصيّة لجميع الإخوان، وصيّة لجميع الإخوان بأداء الفروض وأعمال البرّ، مجموعة من الوصايا أوردها صاحب الجيش الكفيل، وصاحب الجواهر.
- ✓ **الرّسائل** وتضم زبدة أفكاره وقد عالج فيها العديد من المواضيع التي تمسّ الإنسان من جميع مناحي الحياة، وقد خصّص لها صاحب جواهر المعاني فصلا خاصّا في كتابه، بالإضافة إلى بعض الرسائل الأخرى في كتب الطّريقة التّجّانيّة مثل كشف الحجاب وغيرها، وقد جمعت مؤخّرا في كتاب منفصل لوحدها.

من خلال عرضنا للمسيرة العلميّة للشّيخ سيدي أحمد التّجّاني تبيّن لنا أنّه تبحّر في علوم الشّريعة في شبابه، واكتسب تنشئة صوفيّة في زوايا أخرى، قد يكون لكلّ هذا دور في بلورة فكره التّجّاني، ولكن ما نلاحظه:

- ✓ أنّ طريقته التّجّانيّة ليست امتدادا لطريقة أخرى كما هو الحال عند بعض الطّرق، بل منفصلة تماما عنها بالرّغم تنشئته الصّوفيّة وأخذه العديد من الطّرق في بداية طريقه الصّوفي، ما يدلّ على تميّز طريقته بخصوصيّات متفرّدة، وهذا ما سينعكس على فكره الصّوفي.
- ✓ أنّ الشّيخ لم يترك آثارا مكتوبة كثيرة كما ذكرنا ما عدا بعض الرّسائل القليلة، والإجازات ومجموعة من التّعاليم والأوراد والصّلوات والأدعية، فهو لم ير أنّه من الضّروري وضع أفكاره وتعاليمه في شكل كتابات، وهو الذي قد تتلمذ عليه النّاس من مختلف الطّبقات، ولعلّ قصده من ذلك أمرين اثنين؛ الأوّل منهما: أن ينتفع منه الجميع، أمّا إذا ألّف فستكون الاستفادة مقصورة على العلماء فقط. والأمر الثّاني: حتى يكون الكتاب للمريد هو شيخه، ثمّ يكون المريد كتابَ شيخه، كما قال الحسن الشّاذلي: أتباعي هم كتبي[3].

2- الطّريقة التجانية:

إنّ الطّريقة التّجّانيّة التي أسّسها الشّيخ سيدي أحمد التّجّاني هي خلاصة فكره الصّوفي التّجّاني.

أ- مفهومها:

الطّريقة في اللغة تعني الطّريق والسّبيل[4]، أي الطّريق المستقيم الواضح، والسّبيل الموصل إلى الله – عز وجل– والمنهج المتّبع في ذلك، لقوله تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتّبعني﴾[5]. وفي الاصطلاح هي "عبارة عن رابطة روحيّة تتّخذ التّعبّد والتّنسّك وسيلة لإصلاح الفرد والمجتمع"[1].

---

[1] الحاج علي حرازم، جواهر المعاني، ص 100، 154.

[2] مخطوط بالخزانة العامة، تطوان، رقم: 659. سعدية أوتبعزيت، نشأة الفكر الصوفي التجاني، ص 155.

[3] ينظر: سعدية أوتبعزيت، نشأة الفكر الصوفي التجاني، ص 156.

[4] ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، مج 10، ص 220.

[5] سورة يوسف ، الآية 108 .

والطّريقة التّجّانيّة هي "المنهج السّلوكي أو المنهجيّة المتّبعة لبلوغ مقصد معيّن. وبالمفهوم الصّوفي، هي تصوّر تطبيقي للحياة الرّوحيّة يسعى إلى الرّبط التّوافقي بين الحقيقة والشّريعة في سبيل التقرّب إلى الله تعالى، وذلك ابتغاء تحسين المعرفة بالله لأجل المزيد من الإقبال على عبادته[2]، لقوله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين﴾[3].

ب- خصوصيّاتها:

ب-1- مرجعيّتها الدّينيّة:

تميّزت الطّريقة التّجّانيّة بالفرادة عن باقي الطّرق الصّوفيّة لأنّها تستند إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة، أمّا باقي الطّرق الأخرى فقد أخذوا عنه بواسطة، "فالطّرق وإن كانت كلّها محمّديّة بالوجه العام، فقد اختصّت عنها هذه الطّريقة بهذه المزيّة العظيمة والخصوصيّة الجسيمة التي من أجلها اختصّت بحيازة هذه النّسبة الشّريفة والحلية السّنيّة والرّتبة المنيفة"[4].

وما يؤكّد ذلك قول مؤسّسها؛ الشّيخ سيدي أحمد التّجّاني:

"قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا منّة لمخلوق عليك من أشياخ الطّريق، فأنا واسطتك وممدّك على التّحقيق، فاترك عنك جميع ما أخذت من جميع الطريق، والزم هذه الطريقة"[5]. وقوله أيضا : "كلّ الطّرق تدخل في طريقة الإمام الشّاذلي إلا طريقتنا فلا، لأنّها مستقلّة بنفسها ولأجل أنّها محمّديّة إبراهيميّة حنيفيّة أعطاها رسول الله صلى الله عليه وسلم منه إلينا"[6].

وقد وصف باحث أجنبي سلسلة سنده وطريقته بظاهرة جديدة سمّاها (اختصار السّلسلة) ويقول بأنّها أسّست من طرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بتوارث روحي كباقي الطّرق[7]، فهي "طريقة تابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، لم تتبع طريقة قبلها"[8].

ب-2- محبّة الرّسول صلى الله عليه وسلم:

---

[1] آدم عبد الله الإلوري، الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني، منشورات مركز التعليم العربي الإسلامي بأغيغي، نيجيريا، ط2، 1979، ص41.

[2] محمد النذير التجاني، الزاوية التجانية بقمار "ماضي- حاضر- مستقبل"، مخطوط، الوادي، 03 جوان 2014, ص 02 .

[3] سورة العنكبوت، الآية 69.

[4] محمد العربي بن السايح، بغية المستفيد، ص 90.

[5] الحاج علي حرازم، جواهر المعاني، ج1، ص126.

[6] أبو بكر زيد الفوتي، مفتاح السعادة الأبدية في مطالب الأحمدية، ص 16. غاية الاماني في مناقب وكرامات أصحاب الشيخ سيدي أحمد التجاني، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2004، ص 51.

[7] Alberto Grigio, Une confrérie soufie à l'époque du renouveau: la tariqa- Tijaniyya, Islam, et villes en Afrique au sud de Sahara entre soufisme et fondamentalisme, éditions Karthala, Paris, 2003, p 214.

[8] الأحسن البعقيلي، الدرة الخريدة، ج1، ص 83.

اختلفت الطّريقة التّجّانيّة عن غيرها في مفهوم المحبّة؛ إذ يرى الشّيخ سيدي أحمد التّجّاني أنّ اتّباع رسول الله صلى الله عليه وسلم هو مفتاح محبّة الله تعالى للعبد، ولا مطمع لأحد في الحظوة بمحبّة الله تعالى دون رسوله صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك يقول:

"... وإنّما يتكلّم النّاس في أسبابه وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه السُّنّة وتنوّعت بهم العبارات وكثرت الإشارات بحسب الإدراك والمقام والحال... فليس الشّأن أن تحبّ الله بل الشّأن أن يحبّك الله، ولا يحبّك إلّا إذا اتّبعت حبيبه ظاهرا وباطنا، وصدّقته خبرا، وأطعته أمرا، وأجبته دعوة وأترته طوعا، وفنيت عن حكم غيره بحكمه وعن محبّة غيره من الخلق وعن طاعة غيره بطاعته، وإن لم يكن كذلك فلست على شيء. وتأمّل قوله تعالى: ﴿فاتّبعوني يحببكم الله﴾ فاتّباع هذا النّبي الكريم حياة القلوب ونور البصائر وشفاء الصّدور ورياحين النّفوس ولذّة الأرواح وأنس المستوحشين ودليل المتحيّرين"[1].

ولقد صنّف المحبّة إلى أربع مراتب، هي[2]:

- **محبّة الذّات:** وتشمل الذين أحبّوه تعالى محبّة الذّات، فاتّبعوا رسوله واقتدوا به في الاتّصاف بالأحوال العليّة والأخلاق الإلهيّة.
- **محبّة الصّفات:** وتشمل الذين أحبّوه تعالى لأجل ما هو عليه من محامد الصّفات.
- **محبّة الآلاء والنّعماء:** وتشمل الذين أحبّوه لآلائه ونعمائه، ومقتضى ذلك هو الشكر لله تعالى، فهؤلاء اقتدوا به صلى الله عليه وسلم في مقام الشكر، حيث قيل له في قيام الليل: أتفعل هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: أفلا أكون عبدا شكورا، وقد قال صلى الله عليه وسلم: أحبّوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبّوني لحبّ الله، وأحبّوا أهل بيتي لحبّي.
- **محبّة الإيمان:** وتشمل الذين أحبّوه تعالى محبّة الإيمان، وهم الذين اتّبعوا رسوله صلى الله عليه وسلم في مرتبة الإيمان، والمحافظة على بعض الفرائض، وإن وقعوا في بعض المخالفات فما خرجوا عن متابعته صلى الله عليه وسلم.

ب-3- أورادها:

من الميزات الأخرى للطّريقة التّجّانيّة خصوصيّة أذكارها، فهي من تلقينه صلى الله عليه وسلم للشّيخ سيدي أحمد التّجّاني، وفي ذلك يقول: "... **ثمّ أعطاني طريقة من الأوراد وأمرني بلزومها من غير خلوة ولا اعتزال على النّاس**"[3]. ولقد صدق العلاّمة الجليل الشّيخ إبراهيم الرّياحي[1] حين قال في قصيدته السّينيّة:

---

[1] الحاج علي حرازم، الجواهر، ج2، ص 718.

[2] المرجع نفسه، ج1، ص 300، 301.

[3] الحاج علي حرازم، جواهر المعاني، ص 126.

وما ظنونك بالورد الذي نظمت يد النّبوءة هل يبنى بلا ساس[2]

رتّب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأوراد اللازمة لهذه الطريقة بالكيفيّة المتواتر عليها لحدّ الآن؛ وهي الورد المعلوم[3] الذي يمثّل أوّل أركان الطريقة، ثمّ ورد الوظيفة[4] وهو ثاني أركان الطريقة، ثمّ ورد الهيللة[5] وهو ثالث الأركان.

وبهذه الأوراد يرشد الشّيخ سيدي أحمد التّجّاني المسلمين خاصّة إلى ذكر الله تعالى والتقرّب إليه بكلّ همّة وإرادة عابرين مقامات الإسلام والإيمان حتّى يبحروا في مقام الإحسان، فيكونوا من السّابقين الذين قال فيهم تعالى: ﴿والسابقون السابقون (12) أولئك المقرّبون (13) في جنّات النّعيم (14) ثلّة من الأوّلين (15) وقليل من الآخرين (16)﴾[6]. ويرشد النّاس كافّة إلى دين الله – الإسلام– أوّلا، ثمّ يدعوهم إلى معرفته والتعلّق به، وذلك بذكره على الدّوام، لقوله: "كلّ شيء حدّه الله لنا إلا ذكره"[7].

---

[1] **الشيخ إبراهيم الرياحي**: هو شيخ الإسلام أبو إسحاق إبراهيم بن عبد القادر الرّياحي بن الفقيه إبراهيم الطّرابلسي، ولد سنة 1180هـ، 1766م، حفظ القرآن الكريم في مدّة وجيزة، ثمّ انتقل إلى تونس أين تلقّى العلم من أربابه ثمّ تصدّر للتّدريس. ولم يلبث أن برز وترقّى حتى تسلّم أعلى الرّتب؛ الإمامة الكبرى بجامع الزّيتونة ورئاسة الفتوى، وقد اعترف علماء المغرب الإسلامي بمكانته العلميّة والفقهيّة حتى لقّب بسلطان العلماء تشبيها له بالعز بن عبد السّلام. أخذ الطّريقة التّجّانيّة عن الحاج علي حرازم حين قدم تونس سنة (1216هـ). التقى بالشّيخ أحمد التجّاني بفاس سنة 1218هـ. وبفضل نشاطه العلمي وفي الدّعوة إلى الطّريقة انتشرت التّجّانيّة في الأوساط العلميّة وأوساط الحكّام بتونس، وتداول سنده من بعده من شيوخ الفتوى والقضاء ما يزيد على الأربعين من أئمّة ومدرّسين وأمراء ووزراء. (ينظر: عمر بن محمد بن إبراهيم الرياحي، تعطير النواحي بالتعريف بسيدي إبراهيم الرياحي، ص12،7).

[2] عمر بن محمد الرياحي، تعطير النواحي، ص 64.

[3] **الورد المعلوم**: يشمل مائة مرّة من الاستغفار (أستغفر الله) باب التوبة إلى الله، ومائة من الصّلاة على النبي بأيّ صيغة كانت مع أفضلية صيغة (الفاتح لما أغلق) وشأن الصّلاة على النبي امتثال لأمر الله للمؤمنين بالصّلاة عليه وفتح باب محبّة الله ورسوله للمصلي على خير خلق الله كلّهم، ويتوّج المسار إلى حضرة العزيز الجبّار بذكر اسم الجلالة (لا إله إلاّ الله) مائة مرّة للبرمجة اللغويّة العصبيّة الرّوحيّة لتكريس التوحيد بالله عزّ وجلّ. وهذا الورد يذكره المريد بمفرده سرّا، وهو عبادة فردية في السلوك إلى الله ويطلب من الذاكر الاجتهاد في الخشوع أثناء الذكر واستحضار معاني الذكر، لأنّ الحضور هو روح الأعمال. وهذا الورد تمّ ترتيبه من قبل سيّد الوجود صلى الله عليه وسلم في آخر القرن الثاني عشر الهجري من سنة 1196 هـ الموافق لـ 1781م، وبقي منفردا لمدّة عشر سنوات.

[4] **ورد الوظيفة**: وتشمل ذكر ثلاثين مرّة (أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلاّ هو الحيّ القيّوم)، وذكر خمسين مرّة صلاة الفاتح لما أغلق؛ (اللهمّ صلّ على سيّدنا محمّد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحقّ بالحقّ والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حقّ قدره ومقداره العظيم), وذكر مائة مرّة (لا إله إلاّ الله)، وذكر اثنتا عشرة مرة صلاة جوهرة الكمال؛ (اللهمّ صل وسلم على عين الرّحمة الرّبانية والياقوتة المتحققة الحائطة بمركز الفهوم والمعاني، ونور الأكوان المتكونة الآدميّ صاحب الحق الرباني، البرق الأسطع بمزون الأرباح المالئة لكلّ متعرض من البحور والأواني، ونورك اللّامع الذي ملأت به كونك الحائط بأمكنة المكاني، اللهمّ صلّ وسلّم على عين الحقّ التي تتجلّى منها عروش الحقائق، عين المعارف الأقوم صرطك التّام الأسقم، اللهمّ صلّ وسلم على طلعة الحقّ بالحقّ الكنز الأعظم، إفاضتك منك إليك إحاطة النّور المطلسم، صلى الله عليه وعلى آله صلاة تعرّفنا بها إيّاه). وقد أضيفت كورد ثاني للطريقة التجانية بعد مرور عشر سنوات من ظهورها، أي في بداية القرن الثالث عشر الهجري، وهي عبادة جماعية لازمة كلّما توفّرت شروط الاجتماع للمريدين.

[5] **ورد الهيللة**: ويشمل ذكر اسم الجلالة (لا إله إلاّ الله) يوم الجمعة بين العصر وغروب الشمس جماعيا من غير عدد حتّى آذان صلاة المغرب. ولمن كانت له حاجة يجعل العدد بين الألف وألف وستّ مائة مرّة على حسب الطاقات، وقد أضيف مع ورد الوظيفة في بداية القرن الثالث عشر الهجري.

[6] سورة الواقعة، الآيات 12، 13، 14، 15، 16.

[7] محمد النظيفي، الدرة الخريدة، ج3، ص 41.

فالطّريقة التّجّانيّة تسعى من خلال أورادها إلى تهذيب الإنسان والسّير به قُدُما نحو مقام الإحسان؛ المقام الثالث من مقامات الدّين، وهو أعلاها وأرقاها والمعبّر عنه في حديث عمر: "أن تعبد الله كأنّك تراه وإن لم تكن تراه فهو يراك".

ب-4- يسر منهجها:

اتّسمت الطّريقة التّجانيّة باليسر والسّهولة، فجاءت "أورادها سهلة ميسورة لا تتطلّب جهدا كبيرا ولا وقتا طويلا، أساسها الاستغفار والصّلاة على النّبي صلى الله عليه وسلم والكلمة المشرّفة لا إله إلا الله"[1]، وفي ذلك يقول بأنّ سيّد الوجود صلى الله عليه وسلم قال له: "...والزم هذه الطريقة من غير خلوة ولا اعتزال عن الناس حتى تصل مقامك الذي وعدت به وأنت على حالك من غير ضيق ولا حرج ولا كثرة مجاهدة"[2].

ويسر منهجها وسهولته جعلها تتفرّد بكونها أكثر شعبيّة، حيث يزداد عدد المنخرطين فيها يوما بعد يوم حتى أصبح تعدادهم بمئات الملايين، يقول (سيميان): "فيها حرّيّة واسعة، لا نجدها في باقي الطّرق الصّوفيّة، ساعدتها على حشد عدد كبير من الأتباع وهي بسيطة في تعاليمها غير معقّدة، لا تأمر بالخلوة ولا بالتّقشّف، هي مليئة بالتّسامح"[3].

ب-5- البعد الجماعي لممارساتها الدّينيّة:

ركّز الشّيخ سيدي أحمد التّجاني في طريقته على البعد الجماعي في ممارسة العبادات وخاصّة الصّلوات والأوراد، والزّيارات. فالوظيفة والهيللة تؤدّى جماعة كلّما توفّرت شروط الاجتماع للمريدين، فهي عبادة جماعيّة لازمة، وهي بذلك تعمل على إزالة التّفاوت الاجتماعي والطّبقي، والاختلاف الجغرافي واللغوي والعرقي اللوني، وتربّي الفرد والمجتمع على تجاوز الاختلافات البشريّة واختلاف المقامات الاجتماعيّة؛ إذ نجد في حلقة الذّكر: الشيخ والمقدم والمريد المبتدئ، العالم والأمّي، الغني والفقير، كلّهم جنبا بجنب دون تمييز بينهم، حتى أنّ الزّائر لا يفرّق بين الشّيخ والمريد، وهذا هو معنى الجماعة في الإسلام؛ الجماعة المتّحدة قلبا وقالبا، فكرا وروحا.

بالإضافة إلى ذلك نجد معنى الجماعة أيضا مجسّدا في الزّيارة السّنويّة؛ لقاء الأحبّة واجتماعهم محبّة في الله، امتثالا لقوله تعالى في الحديث القدسي: "وجبت محبّتي للمتحابّين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتباذلين فيّ"[4].

فالشّيخ سيدي أحمد التّجّاني وخلفاؤه من بعده جسّدوا محتوى هذا الحديث القدسي في حياتهم الرّوحيّة، والعمليّة الاجتماعيّة، وجعلوا المحبّة أساس الطّريقة التّجانيّة؛ فيحبّ المريد الله – عز وجل- والرّسول صلى الله

---

[1] محمد الحافظ تجاني، قصر السبيل في الطريقة التجانية، طبع الجاحظية، الجزائر، إنجاز جمعية المعارف الثقافية، الوادي، ص 14.

[2] الحاج علي حرازم، جواهر المعاني، ص 126.

[3] Simian Maecel, Les confréries islamique en algerie (tidjania - rahmania), Alger, a jourdan, 1910, p 71.

[4] رواه أحمد في مسنده، والطبراني في الكبير، والحاكم في المستدرك، والبيهقي في شعب الإيمان عن معاذ.

عليه وسلم وشيخَه ومقدّمَهُ وإخوانه والمسلمين عامّة وكلّ النّاس، ويتزاورون فيما بينهم حبّا لله، "فالحبّ هو المعنى المطلق الذي يُحرِّر الآدميَّ من نسبيَّته التي يكتنفها الشّرّ والتي تخضع للضّرورة"[1]، فمتى امتلأ القلب بالمحبّة فلا يمكن أن يصدر عنه ما ينافيها.

ب-4- وسيلة للترقية الاجتماعيّة:

من خصوصيّات الطّريقة التّجّانيّة أنّها ليست نخبويّة، ولا تقتصر على أهل العلم فحسب، بل هي وسيلة لترقية المجتمع، حيث تدعو الجميع للانخراط في سلكها، فأورادها "ليست خاصّة، بل عامّة تعطى لكلّ مسلم يطلبها، مع بعض الشّروط كالمحافظة على الصّلاة في جماعة قدر الإمكان، والمحافظة على سائر الأمور الشّرعيّة، وبرّ الوالدين وعدم مقاطعة الخلق وعدم أمن مكر الله..."[2].

وما يؤكّد ذلك ما جاء في هذه الإجازة: "... وأذنته في الورد المعلوم وطريقتنا التجانية المحمديّة الإبراهيميّة الحنفيّة، وأذنته في صلاة الفاتح لما أغلق بنيّة مرتبتها الظّاهرة والباطنة، وأذنته في تلاوة الفاتحة بنيّة كذا وكذا بما هي مشتملة عليه، وأذنته في تلقين الورد المعلوم لطريقتنا لمن طلبه من جميع المسلمين؛ ذكرا كان أو أنثى، صغيرا أو كبيرا، طائعا أو عاصيا، حرّا أو مملوكا"[3].

ب-6- التفاعل الإيجابي لمريديها:

جاءت الطّريقة التّجّانيّة "خالية من التزام الخلوة والاعتزال عن النّاس ونحو ذلك من ممّا فيه تشديد عن النّفس وتضييق"[4]، وذلك لقول الشّيخ أحمد التّجّاني: "...ثمّ أعطاني طريقة من الأوراد وأمرني بلزومها من غير خلوة ولا اعتزال... ولا حرج ولا كثرة مجاهدة"، فالإحسان يمثّل ترجمة حقيقيّة للسّلوك الإنساني في شكل تفاعلات اجتماعيّة؛ إذ لا معنى للتّصوّف ما لم يتحوّل إلى سلوك تفاعلي يومي يبرز مميّزاته وقوّته في التّعامل مع النّاس، وتأثير إيجابي في الوسط الاجتماعي الذي يوجد فيه.

ب-8- تقبل الآخر:

إنّ المحبّة التي ركّزت عليها الطّريقة التّجّانيّة أرست الثّقافة التي تَقْبَلُ الآخر، وتتواصلُ معه وإنْ اختلف معها في الدّين والعقيدة والرّأي؛ فهي "لا تقوم على رفض الآخر على اختلاف رُآهُ؛ إذْ تعتبر الصّوفي أخًا في الطّريق،

---

[1] الشيخ محمد العيد التجاني، الإنسان الكامل وعلاقته بالطّبيعة "سيدي الحاج علي التّماسيني ﷺ نموذجا"، الملتقى الدّولي للقاءات والموسيقى الصّوفيّة، مرّاكش، المغرب، 2008.

[2] محمد الحافظ تجاني، قصر السبيل في الطريقة التجانية، ص 14.

[3] إجازة سيدي محمد الغالي لسيدي عمر الفوتي، (ينظر: سكيرج، كشف الحجاب، ص 267).

[4] عبد المجيد الدالي، دور رجال الطريقة التجانية في عصر العولمة، محاضرات الملتقى الدولي الثاني للطريقة التجانية الموسوم بـ: "الخطاب الصوفي التجاني زمن العولمة"، 4، 5، 6 نوفمبر 2008، قمار ولاية الوادي، الجزائر، ص 14.

والمسلم أخًا في الدّين، والآخر الذي يخالفك في الدّين والعقيدة شريكا في العبوديّة لله والمجتمع الإنساني الواسع"[1].

ولا ترى عدوّا للإنسان إلا الشّيطان، كما يقول الشيخ الحاج علي التماسيني[2]: "ليس لنا عدوّ إلا الشّيطان"، لأنّ الله تعالى أمرنا بمعاداته، لقوله: ﴿إنّ الشّيطان لكم عدوّ فاتّخذوه عدوّا﴾[3].

رابعا: الإنسان في الفكر الصّوفي التّجّاني

1- حقيقته:

يرى الشّيخ سيدي أحمد التّجّاني أنّ الإنسان أعظم مخلوق وأكمله في الوجود، وما الوجود كلّه إلا جزء منه، وفي ذلك ويقول: "... وإذا تأمّلت هذا الأمر عرفت أنّ الوجود كلّه من أوّله إلى آخره، من الأزل إلى الأبد عموما وخصوصا هو جزء من الإنسان، لا الإنسان كلّه لأنّ الإنسان حمل جميع الصّفات والأسماء، وتجلّى فيه الحقّ بها"[4].

وهذه الصّفة العظمى التي تميّز بها الإنسان عن المخلوقات ترجع إلى كونه الوحيد الذي تجلّت فيه جميع الصّفات والأسماء الإلهيّة، لكون روحه من نفخ الله تعالى، لقوله – عز وجل –: ﴿ونفخت فيه من روحي﴾[5].

ولهذا فالإنسان عامّة: "... جامع لجميع الأسماء والصّفات، خلق الله **روحه من صفاء صفوة النّور الإلهي،** وحلّاها بصفاته العظيمة من العظمة والعزّ والكبرياء والسّطوة والقهر، فظهرت بهذه العظمة في الوجود، وظهوره بها مذموما شرعا، إلا من قهرته التّقوى منهم. ثمّ مع هذا التّحلّي الذي حلّاه صبّ عليه مواقع من أحكامه القهريّة ليعرف قدره ورتبته من الأمراض والمصائب والفقر والموت وما يخرج منه من الفضلات الخبيثة. ولو أنّه أراحه من هذه الأمور على الدّوام مع أمنه من الموت لصرّح بالألوهيّة صراحة من غير إخفاء، وقد تجلّى في الإنسان بجميع صفاته وأسمائه قبولا أو وقوعا؛ القبول منه لأرباب الحجاب، والوقوع للعارفين الذين وصلوا مرتبة الكشف، حيث كوشفوا بصفاء المعرفة واليقين"[6].

---

[1] الشيخ محمد العيد التجاني، مداخلة بمناسبة افتتاح الملتقى الدّولي الثّاني للطّريقة التّجّانيّة، الموسوم بـ "الخطاب الصّوفي التّجّاني زمن العولمة؛ علم، عمل، عبادة"، المنعقد بالوادي، الجزائر، أيّام 4،5،6 نوفمبر 2008.

[2] الشيخ الحاج علي التماسيني: هو أول خليفة للطّريقة التّجّانيّة بعد مؤسّسها الأوّل الشّيخ أحمد التّجّاني، ولد سنة 1766 بتماسين، حفظ القرآن الكريم وتغذّى بمبادئ الشريعة الإسلامية، وعُرف بالصّلاح والتّقوى وطاعة الله ومحبّة عباده الصّالحين منذ صغره. كان فلاّحا يكسب قوته بعرق جبينه، وقد نجح في استصلاح الأراضي المالحة بمنطقة تملاحت فأصبحت صالحة لغرس النّخيل بفضله هو. التقى بالشّيخ أحمد التّجّاني في عين ماضي وانخرط في طريقته سنة 1789، وبويع بالخلافة يوم الخميس 21 سبتمبر 1815، وتوفّي يوم الثلاثاء 12 مارس 1844. (ينظر علي بن خليفة، العرف الشذي في التعريف بالشيخ سيدي الحاج علي التماسيني،)

[3] سورة فاطر، الآية 06.

[4] الحاج علي حرازم، جواهر المعاني، ص 742.

[5] سورة الحجر، الآية 29.

[6] الحاج علي حرازم، جواهر المعاني،ج2، ص 742.

فالإنسان عنده صنفين؛ محجوب وعارف بالله، ميّت وحيّ، وكلاهما تجلّت فيه جميع صفات الله وأسمائه، ولكن الأوّل لم يدركها، أمّا الثّاني عرفها وتحقّقها واقعا مجسّدا. وهذا معنى قول الشّيخ سيدي الحاج علي التّماسيني: "من عرف نفسه عرف ربّه"، أي عرف نفسه وما انطوت عليه من أسماء الله تعالى وصفاته.

وهنا يبرز مفهوم الإنسان العادي المحجوب، والإنسان الكامل، "... فالإنسان الكامل هو الخليفة الأعظم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿أو من كان ميتا فأحييناه﴾[1]. ومرتبة الخليفة الأعظم؛ إذ لا اسم يختصّ به، فإنّ أسماء الوجود كلّها أسماء له، لتحقّقه بمراتبها، ولكونه هو الرّوح في جميع الموجودات. فما في الكون ذات إلا وهو الرّوح المدبّر لها، والمحرّك لها والقائم فيها، لا في كورة العالم مكان إلا وهو حالّ فيه ومتمكّن منه. فبهذا الاعتبار لا اسم له يتميّز به عن الوجود، ولا مكان يختصّ به دون آخر"[2].

ولكن مع تميّز الإنسان الكامل عن غيره إلا أنّه ليس نموذجا معطى، بل يصل إلى هذه المرتبة باتّباع النّموذج الأعظم؛ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك بمجاهدة النّفس وتهذيبها والارتقاء بها في مدارج الإحسان، ولهذا لم يكتف الشّيخ سيدي أحمد التّجّاني بالحديث عن حقيقة الإنسان، بل ركّز على بنائه وصناعته والسّير به في طريق الكمال الإنساني، وذلك وفق مدرسته الرّوحيّة؛ الزّاوية التّجّانية.

2- الزّاوية التّجّانيّة: (مشروع صناعة الإنسان)

المقصود بالصناعة هنا: "البناء، وبنى الرجل اصطنعه، يقول الشاعر:

يبني الرجال وغيره يبني القرى شتان بين قرى ورجال[3]

ويقول تعالى مخاطبا نبيه موسى -عليه السلام-: ﴿واصطنعتك لنفسي﴾[4]، ويقول أيضا: ﴿ولتصنع على عيني﴾[5].

فالإنسان كيان ووجود قابل لأن يصطنع ويُبْنَى جزءا جزءا، وليس البناء والنمو للجسد فحسب، بل حتى الفكر والروح قابلين للصّناعة والسّمو إن هو تعهدهما بالرّعاية شأنهما شأن الجسد، سواء بسواء، لأنّ محور الكون وأساس عملية البناء في الوجود بأكمله هو الإنسان.

والزّاوية التّجّانيّة هي المشروع الذي جسّده الشّيخ سيدي أحمد التّجّاني وخلفاؤه من بعده لصناعة الإنسان، فمنذ تأسيس طريقته عمل على بناء وإنشاء الزّوايا[1] في كلّ مكان، وتنظيم شؤون كلّ زاوية من خلال اختيار

---

[1] سورة الأنعام، الآية 122.

[2] الحاج علي حرازم، جواهر المعاني، ج2، ص 743.

[3] ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ،م 14، ص 95 ، مادة (بنى) .

[4] سورة طه ، الآية 41 .

[5] سورة طه ، الآية 39 .

الرّجال الأكفّاء "مِنَ الوافدين عليه، ذوي العلم والصّلاح والكفاءة فيجيزهم، ويعيّنهم خلفاء عنه في مناطقهم، وهؤلاء بدورهم يعيّنون مقدّمين[2] مساعدين لهم في بلداتهم وقُراهم المجاورة... ويكلّفهم ببناء زاوية تجمعهم للذّكر واللقاء والدّعوة والإصلاح والمناسبات المختلفة وغيرها"[3].

فهي المؤسّسة والإطار المركّب من طريقة منظّمة ومتجسّدة في الواقع، وتتكوّن من ثلاث مستويات[4]:

- ✓ **المستوى الأوّل:** الطّريقة أي الطّريق والمنهج المرسوم للأتباع من طرف الشّيخ المؤسّس.
- ✓ **المستوى الثّاني:** المستوى التّنظيمي أي الطّريقة اتّخذت شكلا منظّما يحدّد العلاقات بين المريدين فيما بينهم وكذا بشيخهم مثلما يسمح بتحقيق التّواصل وضمان الوحدة وإن تباعدت الأمكنة والأزمنة.

المستوى الثالث: الميداني وهو الزّاوية أو الوجود المادّي في المكان والزّمان، فمن دون تحقّق ميداني للطّريقة لن يستطيع الشّيخ وأتباعه تحقيق مقاصدهم.

لذا يمكن القول إنّ مشروع الزّاوية التّجّانية هو مدرسة لصناعة الإنسان؛ فكرا وجسدا وروحا، تتّخذ من الطّريقة التّجّانيّة كمنهج لها، واضح المعالم بأسسه ومبادئه وآليّاته، مدرسة نشرت فروعها في كل أنحاء العالم؛ منهجها واحد ومبادئها واحدة، وأُسُسها واحدة ومصطلحاتها واحدة، مدرسة تسير على خطى ثابتة منذ عهد الشيخ سيدي أحمد التجاني إلى يومنا هذا لم تتبدّل ولم تتغيّر رغم التغيرات الزمانية والمكانية.

3- المنهج العرفاني التجاني لصناعة الإنسان:

إنّ رؤية الفكر الصّوفي التّجّاني للإنسان مغايرة لكل من سبقها؛ إذ ترى أنّ الإنسان ثلاثي التّكوين وليس ثنائيّا؛ عقل وجسد وروح، لأنّ العمليّات العقليّة وحالات البدن الفسيولوجيّة والحالات النّفسيّة الوجدانيّة مختلفة في طبيعتها وخصائصها ولكنّها تجتمع في كينونة واحدة؛ ألا وهي ذات الإنسان.

فللجسد مطالب وللعقل مطالب وللرّوح مطالب، ولكن ليست مطالب هذا منفصلة عن ذاك، وإنّما يكون التّوازن بينها دون إفراط أو تفريط في أيّ منهم بشرط تلازمها في سمو الإنسان نحو الكمال، وهذا ما ركّز عليه المنهج التّجّاني.

أ- أسسه:

---

[1] أنشئت أوّل زاوية تجّانيّة سنة 1789م بقمار بولاية الوادي بأمر من الشّيخ أحمد التّجّاني، ثمّ زاوية فاس سنة 1800، ثم زاوية تماسين سنة 1803، ثمّ زاوية عين ماضي 1816، ثمّ باقي الزّوايا في مختلف أنحاء العالم.

[2] **مقدّمون أو مقاديم:** جمع مقدّم وهو الذي تقدّم على أصحابه في العلم والصّلاح والكفاءة، فكلفه الشيخ بتلقين الطّريقة التّجانية لمن يطلبها، فهو ممثّل الشّيخ ونائبه والمسؤول عن تسيير أمور الطّريقة في منطقته.

[3] علي زيتونة، دور الطريقة التجانية في الوسطية ونشر الإسلام وتحقيق الأمن، محاضرات الملتقى الدولي: الوسطية في الغرب الإسلامي وأثرها في نشر الإسلام في إفريقيا وأوروبا، ديسمبر 2017، جامعة حمه لخضر، الوادي، الجزائر، ص 740.

[4] ينظر: نورالدين الزاهي، الزاوية والحزب، الإسلام والسياسة في المجتمع المغربي، إفريقيا للنشر، ط3، 2011، ص 06.

إنّ الطّريقة التّجّانيّة هي الطّريق المتّبع لتربية الخلق وتزكية نفوسهم؛ فكريّا وروحيّا وأخلاقيّا وإنسانيّا، والمنهج الصّوفي الذي وضعه الشيخ سيدي أحمد التّجّاني للسّير بالإنسان في طريق الكمال، والذي نستشفّ أسسه من خلال تعريفه للتّصوّف؛ إذ يقول: "التّصوّف امتثال الأوامر واجتناب النّواهي في الظاهر والباطن من حيث يرضى لا من حيث ترضى"[1]. وهي كالآتي:

أ-1- العلم: (امتثال الأمر واجتناب النّهي)

ويعني العلم بالشّريعة، فطلب العلوم الشّرعيّة ضروري في الطّريقة التّجّانيّة لمن أراد أن يترقّى في مدارج السّالكين، "فعلى قدر الشّرب من العلوم الشّرعيّة يكون الشّرب من الحوض"[2]. ولهذا نجد الشّيخ يختار الرّجال الأكفّاء "مِنَ الوافدين عليه، ذوي العلم والصّلاح والكفاءة فيجيزهم، ويعيّنهم خلفاء عنه في مناطقهم، ويكلّفهم ببناء زاوية تجمعهم للذّكر واللقاء والدّعوة والإصلاح وغيرها"[3]. وهو المنهج نفسه الذي سار عليه خلفاؤه[4] من بعده إلى اليوم.

أ-2- العمل: (في الظاهر في الباطن)

والمقصود به العمل بالشّريعة في الظّاهر والباطن في كل قول وعمل وخاطر؛ أمّا الظّاهر: بمعنى الالتزام بالأوامر كالصّلاة والصّيام والزّكاة والصّدقات و... واجتناب النّواهي بتطهير الجوارح الظاهرة من الذنوب، كالسرقة والقتل والزنا والغيبة...

وأمّا الباطن: بمعنى الالتزام بالأوامر كالصّدق والإخلاص والتّقوى والتّواضع والمحبّة ... واجتناب النّواهي بتطهير القلوب من المساوئ والعيوب، كالكبر والعجب والحسد والبغض والحقد والكره ...

أ-3- العبادة: (من حيث يرضى لا من حيث ترضى)

وحقيقتها إرضاء الله تعالى على الدّوام ومخالفة هوى النّفس في كلّ فعل وقول وخاطر، فالمريدُ طريقَ الله إذا أُسيءَ إليه حَلُم، وإذا جُهِلَ عليه عفا وغفر، وإذا أذنب تاب واستغفر، وإذا اِبْتُلِيَ صبر، وإذا أُعْطِيَ شكر... وهذا هو قطب الرّحى في التّصوّف عامّة والطّريقة التّجّانيّة خاصّة؛ السّمو بالإنسان للاتّصاف بالأخلاق الإلهيّة

---

[1] الحاج علي حرازم, جواهر المعاني، ج2، ص 539، 540.

[2] محمد العربي بن السايح، بغية المستفيد، ص 184.

[3] علي زيتونة، دور الطريقة التجانية في الوسطية ونشر الإسلام وتحقيق الأمن، ص 740.

[4] **خلفاء الطّريقة التّجانية**: سيدي الحاج علي التماسيني الذي تولى الخلافة بعد المؤسس الشيخ سيدي أحمد التجاني، وكانت مدة خلافته (1815، 1844م)، الشّيخ سيدي محمد العيد الأول وخلافته ما بين (1844، 1875م)، ثمّ الشّيخ سيدي محمد الصّغير وخلافته ما بين (1875، 1892م)، ثمّ الشيخ سيدي معمّر وخلافته ما بين (1892، 1893م)، ثمّ الشيخ سيدي محمد حمه وخلافته ما بين (1893، 1912م)، ثمّ الشيخ سيدي محمد البشير الأول وخلافته ما بين (1912، 1918م)، ثم الشيخ سيدي محمد العيد الثاني (1918، 1927م)، ثم الشيخ سيدي أحمد التجاني التماسيني (1927، 1978م)، ثم الشيخ سيدي محمد البشير الثاني (1978، 2000م)، ثم الشيخ سيدي محمد العيد الثالث وخلافته منذ عام 2000 إلى يومنا هذا. (ينظر: علي محمد غريسي، أعلام وأختام).

كالصبر والرّضا والحمد والشّكر والعفو والإحسان وغيرها من الأخلاق التي يحبّها تعالى، لقوله: ﴿إنّ الله يحبّ التّوّابين ويحبّ المتطهّرين﴾[1]. وقوله: ﴿إنّ الله يحبّ المتّقين﴾[2]، وقوله: ﴿وأحسنوا إنّ الله يحب المحسنين﴾[3]، وقوله: ﴿والله يحبّ الصّابرين﴾[4].

وممكن أن ندرج هنا جزءا من رسالة للشيخ سيدي أحمد التّجّاني حتى نتبيّن حقيقة "أن تعبد الله كأنّه يراك وإن لم تكن تراه فهو يراك"[5]، وممّا جاء في الرّسالة التي بعث بها إلى تلامذته:

"فالذي أوصيكم به وإياي: المحافظة على ... وَعَلَى قَوْلِهِ ﷺ:(مَا تَحْتَ قُبَّةِ السَّمَاءِ إِلَهٌ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ هَوًى مُتَّبَعٍ) وَعَلَى قَوْلِهِ ﷺ:(مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَالاَ يَعْنِيهِ) وَعَلَى قَوْلِهِ ﷺ:(لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ وَاسْأَلُوا اللهَ العَافِيَةَ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا).

وهَذَا وَإِنْ وَرَدَ فِي مَيَادِينِ الجِهَادِ فِي قِتَالِ الكُفَّارِ, فَهُوَ مُنْقَلِبٌ فِي هَذِهِ الأَزْمِنَةِ فِي الصَّفْحِ عَنْ شَرِّ النَّاسِ, فَمَنْ تَمَنَّى بِقَلْبِهِ أَوْ أَرَادَ تَحْرِيكَ الشَّرِّ مِنْهُ عَلَى النَّاسِ, سَلَّطَهُمْ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ وَجْهٍ لاَ يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِهِمْ, وَعَلَى العَبْدِ أَنْ يَسْأَلَ اللهَ العَافِيَةَ مِنْ تَحْرِيكِ شَرِّ النَّاسِ وَفِتْنَتِهِمْ, فَإِنْ تَحَرَّكَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ مِنْهُ, فَالوَجْهُ الأَعْلَى الَّذِي تَقْتَضِيهِ رُسُومُ العِلْمِ, مُقَابَلَتُهُمْ بِالإِحْسَانِ فِي إِسَاءَتِهِمْ, فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ فَبِالصَّفْحِ وَالعَفْوِ عَنْهُمْ إِطْفَاءً لِنِيرَانِ الفِتْنَةِ, فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ فَبِالصَّبْرِ لِثُبُوتِ مَجَارِي الأَقْدَارِ, وَلاَ يَتَحَرَّكُ فِي شَيْءٍ مِنْ إِذَايَتِهِمْ لإِسَاءَتِهِمْ, وَإِنْ اشْتَعَلَتْ عَلَيْهِ نِيرَانُ شَرِّهِمْ فَلْيُدَافِعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ بِلِينٍ وَرِفْقٍ فَإِنْ لَمْ يُفِدْ ذَلِكَ فَعَلَيْهِ بِالهَرَبِ إِنْ قَدَرَ وَالخُرُوجِ عَنْ مَكَانِهِ فَإِنْ عَوَّقَتِ العَوَائِقُ عَلَى الارْتِحَالِ وَلَمْ يَجِدْ قُدْرَةً, فَلْيُدَافِعْ بِالأَقَلِّ فَالأَقَلِّ مِنَ الإِذَايَةِ, فَلْيَفْعَلْ ذَلِكَ ظَاهِرًا وَيُكْثِرِ التَّضَرُّعَ إِلَى اللهِ وَالابْتِهَالَ سِرًّا فِي رَفْعِ شَرِّهِمْ عَنْهُ مُدَاوِمًا ذَلِكَ حَتَّى يُفَرِّجَ اللهُ عَلَيْهِ. فَإِنَّ هَذِهِ الوُجُوهَ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا هِيَ الَّتِي تَقْتَضِيهَا رُسُومُ العِلْمِ"[6].

فالمريد طريق الكمال الإنساني تقابله عدّة خيارات؛ يردّ بالمثل، يقابل الشّرّ بِشَرٍّ أقوى وأشدّ، الإحسان، العفو، الصّبر، الهرب، اللجوء إلى الله. الخيارات الأولى؛ الرّد بالمثل أو أشدّ ومقابلة الشّر بالشّر، فيها انتصار للنّفس وتغليب الهوى، أمّا الخيارات الأخرى ففيها إرضاء لله تعالى على حساب هوى النّفس، وقد رتّبها الشّيخ حسب ما تقتضيه رسوم علم الشّريعة.

---

[1] سورة البقرة، الآية 222.

[2] سورة التوبة، الآية 04.

[3] سورة البقرة، الآية 195.

[4] سورة آل عمران، الآية 146.

[5] محي الدين بن شرف النووي، شرح الأربعين النووية، اعتنى بها محمود بن الجميل، دار الإمام مالك, الجزائر، ط2, 2001, ص31.

[6] سيدي الحاج علي حرازم ، جواهر المعاني، ج2، ص 766.

فالإحسان أعلى المراتب لقوله تعالى: "وادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنّه وليّ حميم". فمن لم يستطع فعليه بالعفو، لقوله تعالى: "والكاظمين الغيظ والعافين عن النّاس". فإذا لم يستطع فالصّبر، لقوله تعالى: "والله يحبّ الصّابرين". فمن لم يستطع فبالارتحال، وذلك كلّه إطفاء لنيران الفتنة.

إنّ أسس المنهج الصّوفي التّجّاني الذي حدّده الشيخ سيدي أحمد التجاني لنفسه ولكل من انتهج نهجه هي: العلم والعمل والعبادة، وهي الأسس نفسها التي اعتمدها خليفته الشّيخ سيدي الحاج علي التّماسيني؛ اللويحة والمسيحة والسّبيحة، وهي نفسها أيضا التي يعتمدها الشّيخ الحالي؛ الشيخ سيدي محمد العيد التّجّاني.

ب- آليّاته:

إنّ حقيقة الإنسان حسب الفكر الصّوفي التجاني هو الذي يكتمل جوهره بالعلم والعمل والعبادة، فيرتقي؛ فكريا وعمليا وروحيّا، وبذلك يتأهّل لتحقيق؛ الخلافة والعمارة والعبادة، ويكون جديرا بقيادة الإنسانيّة للخير والصّلاح. ولأجل ذلك توسّلت بعض الآليّات التي تحقّق ذلك، منها:

ب-1- المحبّة:

أهمّ آليّة لهذا المنهج العرفاني التّجّاني هي المحبّة، وهي سبيل حياة الأرواح وبدونها يكون الإنسان جسدا لا روح فيه، وفي ذلك يقول الشّيخ سيدي أحمد التّجّاني:

"اعلم أنّ المحبّة هي المنزلة التي يتنافس فيها المتنافسون، وإليها يشخص العاملون، وإلى علمها شمّر العاملون، وعليها يتفانى المحبّون، وبروح نسيمها تروّح العابدون، فهي قوت القلوب وغذاء الأرواح وقرّة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنّور الذي من فقده فهو في بحار الظّلمات، والشّفاء الذي من عُدِمه حلّت بقلبه جميع الأسقام، واللذّة التي لم يظفر بها فعيشه في غاية الهموم والآلام. وهي روح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تحمل أثقال السّائرين إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشقّ الأنفس، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدا واصليها، وتبوّئهم من مقاعد الصّدق في مقامات لم يكونوا لولا هي داخليها، وهي مطايا القوم التي سُراهم في ظهورها دائما إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي تبلّغهم إلى منازل الأُلى من قريب.

تا الله لقد ذهب أهلها بشرف الدّنيا والآخرة؛ إذ لهم من معيّة محبوبهم أوفر حظّ ونصيب، وقد قدّر الله يوم قدّر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة أنّ المرء مع من أحبّ... فانزل الله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرّسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشّهداء والصّالحين وحسن أولئك رفيقا﴾... لقد سبق القوم للسّعادة وهم على ظهور الفرش نائمون، ولقد تقدّموا الرّكب وهم في سيرهم واقفون، مَنْ لي بِمِثْلِ سَيْرِكَ المذَلَّلِ تَمْشي رُوَيْدا وَتَجيءُ في الأَوَّلِ"[1].

[1] الحاج علي حرازم، جواهر المعاني، ج2، ص 715، 716.

وقد قسّم الشّيخ المحبّة إلى أربع مراتب كما ذكرنا سابقا، وذكر بأنّ الإنسان يستطيع الارتقاء بها وصول إلى درجة الكمال، فيقول: "... فصاحب محبّة الإيمان إذا أدام التّوجّه بها إلى الله تعالى، ولازم قلبه ذلك انتقل منها إلى محبّة الآلاء والنّعماء لأنّها أعلى منها، وصاحب محبّة الآلاء والنّعماء إذا أدام التّعلّق بها، والتّوجّه إلى الله بالقلب على طريقها، انتهت به إلى محبّة الصّفات، فانتقل إليها حينئذ وهي أعلى منها، وصاحب محبّة الصّفات إذا أدام التّوجّه بها إلى الله تعالى واستقام سيره وسلوكه انتقل منها إلى محبّة الذّات، وهي أعلى وهي الغاية القصوى[1].

ب-2- الذّكر:

هو أعظم آليّات المنهج الصوفي العرفاني، لأنّه يرتقي بالإنسان المحجوب إلى الإنسان الكامل، وفي ذلك يقول الشيخ سيدي أحمد التجاني:

"وأعظم النّوافل تقرّبا؛ الذّكر وكذلك الصّلاة بتعاهدها بالحضور القلبي لأنّها مثل الذّكر، لا يزال العبد مرّة يذكر ومرّة يستريح، حتى إذا رأى الحقّ منه ذلك صبّ في قلبه من مواهبه أنوارا إلهيّة شغلت القلب عن غير الله تعالى، وملأته بذكر الله تعالى، وصار القلب بسبب ذلك مطمئنّا بذكر الله، ومن الطّمأنينة ينتقل إلى المراقبة... فإنّها إن دامت وتمكّن أمرها من القلب خرجت به إلى الذّهول عن الأكوان، ثمّ إلى السّكر عنها وهو أعلى من الذّهول، ثمّ إلى الفناء عن الأكوان مع شعوره بفنائه، ثمّ إلى الفناء عن الفناء... وهو باب المدخل إلى محبّة الذّات، وهي غاية الغايات"[2].

ويقول في موضع آخر: "... وفيض الأنوار أكبر ما يأتي به الذّكر، فإنّه لا يزال العبد يتعاهد أوقات ذكره، ثمّ يستريح والأنوار تقدح في قلبه وقت الذّكر، ثمّ تنتقل لعدم استقرارها فيه، لكن ورودها عليه يعمل في روحه شيئا من الصّفاء، فإنّها كانت أوّلا تقدح، ثمّ تنتقل إلى حالة أخرى تمكث في القلب قدر الدّقيقتين أو الثّلاثة، ثمّ تنتقل إلى حالة أخرى تمكث في القلب قدر ساعة.

ثمّ تنتقل فلا تزال حالة بعد حالة حتى تستقرّ الأنوار في قلبه، فتكسبه حالة لم يعهدها من نفسه من القوّة على الذّكر، والحنين إلى الوقوف بباب الله، وتوجّع القلب من مخالطة الخلق، وما يشاهده من تخليطاتهم، ثمّ لا يزال العبد باستمراره مع الذّكر إلى أن تخرج به الأنوار إلى استغراق أوقاته في الذّكر آناء الليل والنّهار، فيجد في روحه اكتسابا لم يعهده من الرّضا بقضاء الله تعالى والصّبر للبلايا، وعدم الانزعاج منها، والتّوكّل على الله تعالى في نفقاته وأمورها، والبعد عن التّكالب عن الدّنيا واكتسابها، ثمّ لا يزال به الأمر حتى يطمئنّ بذكر الله.

---

[1] الحاج علي حرازم، جواهر المعاني، ج2، ص 307.

[2] الحاج علي حرازم، جواهر المعاني، ج2، ص 449، 450.

فإذا اطمأنّ القلب بذكر الله، بحيث يصير الذّكر له وطنا لا يقدر عن التّخلّف عنه ولو لحظة، ذاق باكورة أهل التّحقيق..."[1].

ج- مبادئه:

ج-1- ميزان الشّرع:

اتّخذ الشّيخ سيدي أحمد التجاني من الشّرع ميزانا لمنهجه وفكره وقوله، وفي ذلك يقول: "إذا سمعتم عنّي شيئا فزنوه بميزان الشّرع، فإن وافق فاعملوا به وإن خالف فاتركوه"[2]. لأنّه قد يُكْذَبُ على الشّيخ ويُلْحَق به ما ليس له، فكان هذا المبدأ هو الحاسم لكل قول أو فعل وُسِمَ به الشيخ ينافي الشّرع.

ج-2- الأصالة والمعاصرة:

يقول الشيخ سيدي أحمد التجاني: "بِسَيْرِ زَمانِكَ سِرْ"[3]، وهذا يعني أنّ المنهج الصّوفي التّجّاني يساير العصر دون أن يتخلّى عن مقوّماته، فهو يجمع بين مفارقتين؛ الدّين والدّنيا، روح الشّرع ومتطلّبات الرّاهن الاجتماعي في الوقت نفسه، وهذا المبدأ اختصّت به التّجّانيّة، يقول أندري: "إنّ الجانبين الدّنيوي والرّوحي يحتلان نفس المكانة في هذه الطّريقة، وهو ما اعتبره ظاهرة جديدة في التّصوّف"[4].

وهو مبدأ يرفض الجمود والتّقليد، كما يرفض الانعزال والانزواء، وينأى عن السّلبيّة والاتّكاليّة، يؤمن بالتّطوّر والتّجديد ولكن في إطار الشّرع، وذلك من خلال الجمع بين العبادة ومواكبة العصر بكل تحوّلاته وتغيّراته لأنّ دوام الحال من المحال. وهذا ما يجعل الإنسان دائم البحث عن الجديد الذي يخدم البشريّة، يشارك في إيجاد حلول للمشاكل التي يشهدها واقعه، ويسهم في حل قضاياه وتوجيه مسار الحياة الإنسانيّة الوجهة السّليمة.

خاتمة:

وفي الأخير يمكن أن نستخلص إلى النّتائج الآتية:

- ✓ إنّ نظرة العلماء والباحثين إلى حقيقة الإنسان عبر تاريخ الإنسانيّة الطّويل لم تخرج عن اعتباره ثنائي التّكوين؛ جسد وروح أو جسد وعقل، مع التّركيز على أحد الجانبين على حساب الآخر، أو محاولة دراسته على أساس عنصرين منفصلين لكلّ عنصر ميزاته التي تخصّه.

---

[1] المرجع نفسه، ج2، ص 459.

[2] أحمد سكيرج، الإفادة على الإفادة، الزاوية التجانية، المغرب، دط، دت، ص 04.

[3] أحمد سكيرج، الإفادة على الإفادة، ص 04.

[4] Général Andre P j, contribution a l'étude des confréries religieuses musulmanes, Alger, édition la maison des livres, 1956, p 292.

- ✓ رغم التّنشئة الصّوفيّة للشّيخ سيدي التّجّاني إلا أنّه أسّس طريقة خاصّة به، مستقلّة، تابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة، وبذلك كانت لها خصوصيّات تميّزها عن غيرها، بما انعكست على فكرها الذي اتّسم بالجدّة والفرادة.
- ✓ لم يخلّف الشّيخ سيدي أحمد التّجّاني كتبا كثيرة، وإنّما ترك طريقة تمثّل خلاصة أفكاره، وزاوية تمثّل ترجمة حقيقيّة لأفكاره على أرض الواقع.
- ✓ عرّف الشّيخ الإنسان بكونه الجامع لجميع الصّفات والأسماء الإلهيّة، وميّز بين صنفين؛ المحجوب والعارف بالله، مع إمكانيّة السّير بالمحجوب في طريق الكمال الإنساني.
- ✓ لم يتناول الشّيخ الإنسان من جانب نظري فحسب؛ تعريفه وأصنافه وتكوينه والغاية من خلقه، بل طرح مشروعا لبنائه وصناعته، وكيفيّة الارتقاء به من الإنسان المحجوب إلى الإنسان العارف.
- ✓ إنّ الزّاوية التّجّانية هي مشروع الفكر التّجّاني؛ والمدرسة التّطبيقيّة لصناعة الإنسان؛ فكرا وجسدا وروحا، وفق المنهج العرفاني؛ العلم والعمل والعبادة، مدرسة نشرت فروعها في كل أنحاء العالم؛ منهجها واحد ومبادئها واحدة، وأُسُسها واحدة ومصطلحاتها واحدة، مدرسة تسير على خطى ثابتة منذ عهد الشيخ سيدي أحمد التجاني إلى يومنا هذا لم تتبدّل ولم تتغيّر رغم التغيرات الزمانية والمكانية.
- ✓ نظر الفكر التّجّاني للإنسان على أنّه كيان واحد ثلاثي التّكوين؛ عقل وجسد وروح، وجب صناعته حتى يسمو نحو الكمال الإنساني، وذلك باتّباع المنهج التجاني؛ العلم والعمل والعبادة، لأنّ العلم: أساس صناعة الفكر، والعمل: أساس صناعة الجسد، والعبادة: أساس صناعة الروح.
- ✓ إنّ حقيقة الإنسان حسب الفكر الصّوفي التجاني هو الذي يكتمل جوهره بالعلم والعمل والعبادة، فيرتقي؛ فكريا وعمليا وروحيّا، وبذلك يتأهّل لتحقيق؛ الخلافة والعمارة والعبادة، ويكون جديرا بقيادة الإنسانيّة للخير والصّلاح.

آفاق البحث:

ليس المهم أن نعرف رؤية الفكر التجاني لحقيقة الإنسان، ولكن المهم أن نستثمر هذه الرؤية ونوظّفها في واقعنا في هذا العصر، وهذا ما يدعونا إلى فتح آفاق للبحث، أبرز ما جاء فيها:

- ✓ دراسة خطابات الشّيخ المنتشرة في كتب الطّريقة التّجّانيّة من رسائل ووصايا وشروحات وغيرها لاستخلاص التّفاصيل الدّقيقة لمنهجه العرفاني وآليّاته، وتنظيمها في قالب علمي أكاديمي، وتقديمها كبرنامج تدريبي مكثف، نستثمره في تربية النّشء حتى يتمّ صناعة الرّجال، وتكوين القادة القادرين على حمل راية الإسلام وصناعة حضارة إنسانيّة تفيء بظلالها على البشريّة جمعاء، كما قال تعالى: "وكنتم خير أمّة أخرجت للنّاس".

- ✓ طرح المنهج العرفاني القائم على الأسس الثّلاث؛ العلم والعمل والمعرفة كمنهج جديد للدّراسة، ولا سيما العلوم الإنسانيّة.
- ✓ فتح مخبر للدّراسات القرآنيّة والحديثيّة والصّوفيّة الجادّة بالزّاوية التجانية ، والتي تسعى إلى تقديم الجديد الذي يخدم البشريّة جمعاء، دراسات تقوم على الأصالة والمعاصرة كما هو مبدأ الطّريقة؛ تواكب العصر دون التّخلّي عن مقوّمات ديننا وهويّتنا وثقافتنا الإسلاميّة.
- ✓ إنشاء مجلّة علميّة محكّمة باسم المخبر تنشر فيها الدّراسات حتى يستفيد منها الجميع، وإدراجها ضمن البوّابة الالكترونيّة للمجلات العلمية الجزائرية.